محدّدات المقاومة المدنية

المقصود بالمحدّدات، في هذا الموضع، مجموعة من الخصائص التي يساعد وجودها في مجتمع معيّن على خوض النضال المدني بشكل أكثر فعالية. فالمقاومة المدنية لدى دعاتها والمنادين بها لا تقل شأناً عن المقاومة المسلّحة، ذلك انها تحتاج الى مقوّمات ومتطلبات، مثلها في ذلك مثل أي معركة يتمّ خوضها بالكفاح المسلّح؛ كما انها ترمي الى تحقيق النتائج ذاتها التي يسعى العنف الى تحقيقها. ومن خلال متابعة مسار بعض التجارب التاريخية في هذا المجال، وبعض الادبيات الخاصة بها، يمكن القول ان من أهمّ محدّدات المقاومة المدنية ما يلي.

١ ـ الاوضاع البنيوية للمجتمع: ويقصد بها وجود مختلف المؤسسات التي تتركز فيها مواضع القوة الاجتماعية، كالأسرة والطبقات الاجتماعية والجماعات الثقافية والدينية والاقتصادية والمهنية والتعاونيات والمنظمات الطوعية والاحزاب السياسية والمدارس والجامعات وغيرها من البنى. ورأى شارب انه على الرغم من ان كثيراً من هذه البنى يكون راسخاً في المجتمع، الّا ان بعضها قد ينشأ في غمار تطوّر عملية المقاومة. وهامّ في هذا الشأن، ملاحظة مستوى القوة التنظيمية للبنى وأسلوب صنع القرار داخلها، وتماسكها الداخلي، ومستوى تدفّق الاتصال داخلها، من جهة، وبين بعضها البعض، من جهة أخرى، ودرجة انتشارها في المجتمع، واستقلالها المادي. وعموماً، فان المجتمع الذي توجد فيه بنى مؤسسية يملك القدرة على العمل المستمر المستقل، ويستطيع الولوج في حركة المقاومة بصورة أقوى بكثير من المجتمع الذي لا تتوفّر فيه هذه الخصائص[١٥]. المقاومة المدنية، ببساطة، تحتاج الى وجود المجتمع المدني المنظّم، من خلال أطر مؤسسية، الذي يمكنه العمل اجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً، بمعزل عن سلطة الاحتلال، لأطول مدة ممكنة.

٢ ـ الشجاعة والاستعداد للتضحية: ان سلوك المقاومة المدنية يحتاج الى قدر خرافي من الشجاعة ونزع أي خوف داخلي. ودون ذلك، فان الحركة سوف تتعرّض للفشل. قال غاندي: «ان الجبن يلازم الرجل المسلّح حتى أسنانه، بينما لا يتصور ان يشرع انسان في مواجهة الخصم المسلّح باللاعنف، الّا اذا بلغ درجة من الشجاعة لا يشوبها شيء من التردد»[١٦].

٣ ـ ضبط النفس: يعدّ ضبط النفس حاجة ضرورية للشروع في أنماط المقاومة المدنية. ذلك ان سلطات الاحتلال تسعى، دوماً، الى جرّ جماهير المقاومة نحو استخدام العنف الذي تجيد التعامل معه والرد عليه بأضعاف مضاعفة. وقد وصف غاندي احد معاركه مشيراً الى ما أثبته، وأتباعه، من كبح النفس والصبر على استفزاز سلطات الاحتلال البريطانية، فقال: «كنا نتقدم في سبيلنا، فتعترضنا بنادق الجنود، فلا نكترث؛ ويطلقون النار فيسقط من يسقط، ولكننا نتقدم دون ان نرفع يداً واحدة؛ ويطلقون النار، فيقع من يقع، ونحن نتقدم! وعندئذ يلقون السلاح خجلين، ونحن نتقدم دوماً، فيفسحون لنا في الطريق؛ وقد هزمنا قوتهم بصبرنا»[١٧].

٤ ـ القيادة ووحدة الحركة والاستمرارية: على الرغم من ان المقاومة المدنية قد تأتي بشكل عفوي، كتحوّل جنازة احد الشهداء الى تجمّع احتجاجي، أو تظاهرة كبرى، الّا ان الانتقال نحو التوسّع في أنماط هذا النموذج، وتوزيع أعباء النضال داخلياً، والاعتماد على الذات، وطرح المطالب، والتزام الانضباط العام بالحركة، وتجنب محاولات الخصم لاستثارة الجماهير نحو أنماط العنف، وذلك الى جانب الحفاظ على استمرارية هذه المظاهر لفترة طويلة، لأن النتائج لا تتحقق غالباً